روز غـريـّب

في عالم الأسطورة



مكتبة سمير

حكايات من أمس واليوم»

نداء القمم

النـافذة

البيت المهجور

حكايـات من الصحراء

مـاذا تقول الحمـائم ؟

في عالم الأسطورة

مكتبة سمير

في عالم الأسطورة

الرُسوم ولَوحة الغلاف: **سيرج باغراميان**

١) الهرُّ الأخْضَر

٢) في عَالم الأسْطورة

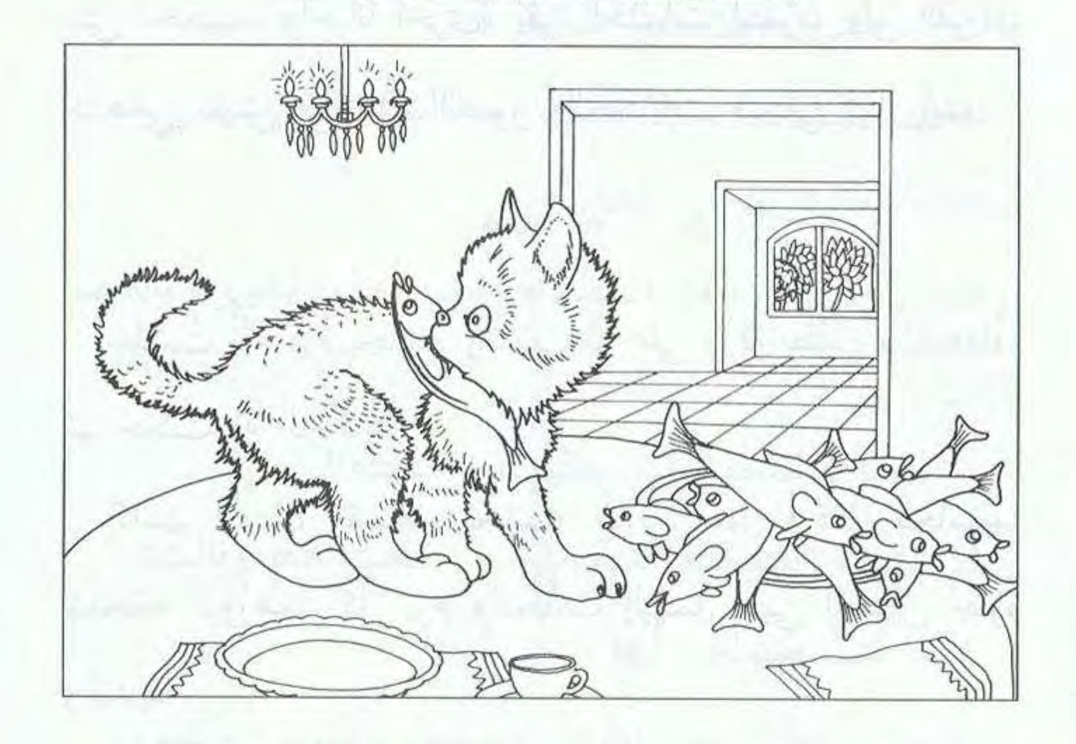
٣) أساطير عَن البحر

٤) أوروبَا وَقدموس

مقدمة

من فوائد هذه الحكاية أولًا تشجيع الأولاد على كتابة الحكايات والقيام بمحاولات في الخَلْق والتخيُّل. ثانيًا تتضمن فائدة علمية لأنها تُرينا أن بعض الحيوانات تتّخذ لون المكان الذي تعيش فيه لتُخفي رؤيتها عن خصم أو عدوّ يلاحقها. مثلًا الصوف الأخضر الذي التفّ به الهر منع رؤيته في مكان يغطّيه العشب أو الورق الأخضر. كذلك القشرة البنيّة التي تغلّف الزيز أو الصرّار تخفيه عن العيون حين يجثم على غصن بنّي أو جذع شجرة بنّي اللون.

الهرُّ الأخضَر



هاني في الفِراش لا يَقْوَى على الحركة، لأنه مُصاب بكَسْرٍ في رِجلِه اليُمنى. لكنَّهُ يتسلّى بالحكاياتِ والألعاب. على طاولةٍ بجانبِه مجموعةُ صُوَر مُلوَّنة في صفائحَ من «بلاستيك» شَفّاف. يُنزِلها هاني في آلة مُكبِّرة ويبتهِج بما تَعرِضُه من مناظر طبيعيةٍ بارزةِ الأشكال، باهرةِ الألوان.

هناك أيضًا كُتُبٌ كبيرةُ الحَجم، فيها صُوَر مُلوَّنة، تَحتَها كلماتٌ تَروي القِصة التي تُمَثِّلها كلُّ صُورة. هاني يُطيل النظَر

إلى الصُوَر. يُحاوِلُ أن يَفهم الحكاية من غير أَنْ يقرأ السطور التي تحكيها. وأحيانًا أُخرى، يَقرأُ الكلماتِ لِيتمرَّن على القراءة.

هاني يَعيش في عالَم الصور والحكايات فيَمتَلِئ بها رأسه.

* * *

جلسَتْ أُمُّه مرَّةً بجانبِه. رسَمَت له على ورقةٍ بطَّتَين وسُلَحفاةً، ثم حكَت له الحِكاية:

كانت بطَّتان تُقيمان بجانبِ غَدير ماء. وكان بجانبهما سُلَحفاة تَزورُهما كلَّ يَومٍ وتَتحدَّث إليهما. فَهيَ لِلبطَّتين جارَةٌ وصَديقة.

حدَثَ مرةً أنْ قَلَّ مَطَرُ الشتاءِ وجفَّ ماءُ الغدير. فعزمَتِ البطَّتان على تَركِ ذاك المكان لئلّا تَموتا عَطَشًا. ولمّا أخبرتا السُلَحفاةَ بعَزْمِهِما قالت لهما هذه:

– أُريدُ الذَّهابَ معكما، لأني لا أقدِر على فِراقِكما. لكني غيرُ قادرة على الطَيران، فماذا أفعَل؟

قالت البطَّتان:

– لا تَحزَني. سنأتي بعُودٍ نُمسِكُ طرفَيه بِمخالِبنا، وتَعَضّينَ

أَنتِ وَسْطَه بفَمِكِ، ونَطِيرُ وإياك في الجَوّ. ولكنْ إياكِ أنْ تَفْتَحي فمَكِ لتتكلّمي، فإنكِ موتًا تموتِين !

جاءتِ البطَّتان بعُودٍ تعلَّقت به السُلَحفاةُ بفمِها وحملَتْه البطَّتان، وطارتا بها في الجَوّ.

فلما رأَى الناسُ ذلك المنظَر تعجَّبوا، وأَخذوا يُشيرون بأيديهم قائلين:

– عجبًا ! سُلَحفاةٌ بينَ بطَّتَينِ قد حَملَتاها!

لم تَستَطِعِ السُلَحفاةُ السكوتَ، بل فَتَحتْ فاها وقالَتْ:

– ما أشدَّ فُضولكم أيها الناس !

وللحالِ سقطَتْ على الأَرضِ وأُصيبتَ برضُوضٍ وكُسور.

* * *

في المساء حين أَلقى هاني رأسه على المِخَدَّةِ لينام، أخذ يفكّر في قِصةِ البطَتَين والسُلَحفاة. ثم أغمضَ عينَيه وغرِقَ في النوم.

رأى في منامِه فتاةً صغيرة تَسيرُ وحدَها في غابة. هناك لَقِيَت جِنّيَّةً جميلةً تَتنقَّل بين الأشجار. اقترَبتِ الفتاةُ الصغيرةُ مِن

الجِنيّةِ، فٱبتسَمتْ لها وسألتْها قائلة:

– ما ٱسمُكِ؟

– نادية...

– أتُريدين الذَّهابَ معي إلى القصرِ المسحور؟

– نعم أُريد.

– سأحمِلُكِ وأَطيرُ بكِ في الجَو. ولكن إياكِ أنْ تتكلّمي. لأنكِ إذا تكلَّمتِ أَرجعتُكِ إلى الأرض.

وضَعَتِ الجِنّيَّةُ الفتاةَ الصغيرةَ على ظَهرِها وطارت بها. وفيما هما في الجَوّ، نسيَت نادِيَةُ وَصِيّة الجِنّيَّة وقالت:

– آهِ ما أحلى الطَيرانَ ! وما أَجمَلَ السماءَ !

وإذا بها تَسقُط على الأرض وتجدُ نفسَها وحدَها. لكنَّها لم تُصَبْ بأذى.

* * *

في الصبَاح، روى هاني حُلمَه لأُمّه فقالت:

– قدِ اخترعتَ حكايةً شبيهةً بحكاية البطَّتينِ والسُلَحفاة. عافاكَ يا هاني... أرجو أن تخترعَ حكاياتٍ أُخرى.

أخذَ هاني يفكّرُ في ما قالَته أُمُّه.

في المدرسة، كانتِ المعلّمةُ تُحدِّث الأولادَ عنِ الذينَ اخترعُوا الطَّيّارة، والسَّيّارة، والدَّرّاجة.

كانت تقولُ لهم أحيانًا: اخترِعوا لحنًا لهذا الشِّعْر.

أو تَقول: اخترِعوا لُعبةً جديدة.

أيُّ شيءٍ أَصعب: اختراعُ لحنٍ يُغَنَّى؟ أمِ اختراعُ لُعبةٍ جديدة؟ أمِ اختراعُ حِكاية؟

* * *

نَظرَ هاني من الشُبّاك الذي بجانِب سَريره.

أوراقُ الأشجارِ تَرتعِش. تَتحرَّك بين أيدي النسيم. يُسمَعُ لها حَفيف، كأنَّها تتهامَس، تَروي بعضُها لبعضٍ حكاياتٍ وأخبارًا مُمتِعَة.

الغيومُ تتجمَّعُ في السماء. تتكوَّم بعضُها فوقَ بعض. فيتألَّفُ منها أشكالٌ وصُوَر عجيبة.

هناكَ مَلِكٌ جالسٌ على عرشِه، وبيَدِه عصاه وعلى رأسِهِ تاج. هنالك فيلٌ على ظَهرِه خَيمة. وبجانبِهِ أَسدٌ يأكلُ نعجة. وذِئبٌ

يَجُرُّ خَروفًا. وهِرٌّ يُلاعِب فارة.

هاني يُحَوِّل نظَره عنِ السماء وغيومِها. يَنظُر إلى البعيدِ البعيد، حيث غابةُ الصَنوبر تمتَدُّ مثلَ بحرٍ واسع.

خُيِّل لهاني أنه يرى هِرًّا أَخضر يجري بين الصنوبرات وبجانبِه جِنِّيَّةٌ جميلة في ثِياب لامِعةٍ خضراء.

هِرٌّ أخضر.

لَيتَه يأتي إلى غرفة هاني ليلاعبَه ويداعِبَه.

ولكن... قالَ هاني متسائلًا: كيفَ حصَلَ الهِرُّ على لَونِه الأخضر؟

ثم أجاب:

- يَظهَرُ أَنه قامَ بعَملٍ طيِّب... كان يقوم بنُزهة بين الأَحراج الجميلة. رأى رجلًا يرمي على الأرض سيكارة ما تزالُ مشتعلِة، تُهدِّد بإحراق الحُرج.

ركضَ الهرُّ مُسرِعًا فالتقطَ السيكارة، ودعكَها حتى تفتَّتَتْ وانطفأَت نارُها. وشَعر بسُرورٍ لأنه أنقذَ الحُرج من الحريق.

وإذا بجنيّة الأَحراج تَظهَر له وتقول:

- بما أنك قُمتَ بعَملٍ طيّب، أُريد أن أُعطيك هَدِيَّة تُذَكِّرُك الأحراجَ التي أحبَبتَها وأنقذْتَها مِنَ الحريق. أما الهديّة فهي أن أُبدِلَ صوفَك الرَمادي بصوفٍ أخضر، يجعلُك شبيهًا بشَجَرة صغيرة، مُتَنَقِّلة.

قالتِ الجنّيَّةُ هذا، ولمَستِ الهِرَّ بعصاها السِّحْريّة فتحوَّلَ صوفُه الرماديُّ القصيرُ الشعر إلى صُوفٍ أخضر طويلِ الشعر، شبيهٍ برداء مُلوكيّ فاخِر.

أخَذ الهرُّ يتمايَلُ مُعْجَبًا بثوبِهِ الجَديد. وهَزّه الفرحُ، فراح يَجري راكضًا بينَ الأشجار، وهو لِشدَّةِ طرَبِهِ يكاد يَطير. تَطلَّعَ حولَه، فَخُيِّلَ له أن الأشجار تنظُر إليه بدَهشةٍ وإعجاب. لكنه لم يَقنَعْ برِفْقَةِ الأشجار التي لا تَمشي ولا تتكَلَّم إلا فيما بينها. وهُوَ إذا خاطَبَها لا تَستطيعُ الجواب.

خَطَر له أن يسعى إلى المدينة، لعلّه يلتقي هرًّا آخر يحادثُهُ ويسمعُ منه كلماتِ التهنئَة والمديح.

بعد أنْ مشى مسافةً طويلةً، اَلتقى هِرًّا أسودَ اللون أخضَر العَينَينِ، ينظرُ إليه مدهوشًا. فقال له:

– مرحبًا.

– مرحبًا أيها الهرُّ الأخضر. ما أجمَلَ صُوفَكَ !

ثم أضاف:

– أَتُريد أن نَتمشّى قليلًا؟ سآخُذُكَ إلى بيتي.

– أين بيتُكَ؟

– هنا قريبًا. تعال.

مَشيا معًا ودخلا بيتًا كبيرًا، كثيرَ النوافِذ والغُرَف. ووصَلَت إلى أَنْفِ كلٍ منهما روائحُ طيّبةٌ آتيةٌ من جِهَةِ المطْبَخ. فقال الهرُّ الأسْوَد لرفيقه:

– أتشَمُّ روائحَ اللحمِ المطبوخِ والسمَكِ المَقليّ؟ أيُّهما أحبُّ إليك، السَّمكُ أم اللَّحم؟

– أُحبُّ السمَكَ واللحمَ، أجابَ الهِرُّ الأخضر. ولكن كيفَ الوصولُ إليهما؟

– تُغافلُ أهلَ البيت، وتَهجُم على الطعام فتَخطُف منه ما تُريد.

– وأنت؟

– أنا هِرُّ البَيت. يُطْعِمونَني حينَ أَجوع ولا أحتاجُ إلى خَطْفِ طعامي.

– أمّا أنا فأشعُر بالجوع، قال الهرُّ الأخضر، ولا بُدَّ لي مِن خَطفِ شَيء آكُله.

قال هذا، وانْسَلَّ كاللِّصِ مختبِئًا وراءَ بابِ المَطبَخ. وحينَ خرجَتْ صاحبةُ البيتِ لتَنشُرَ مناشِفَ الصحون، صَعِدَ إلى الطاولةِ التي وُضِع فوقَها وِعاءُ السمَكِ المَقْليّ. فخطَفَ فَرْخَ سَمَكٍ. وبسُرعةِ البَرْقِ، حَمَلَهُ إلى الجُنَينَةِ المحاذيةِ للمطبَخ، وشرَعَ يأكُلُه.

أَحسَّتِ السيّدَةُ بحركةِ الهِرِّ. وحين دخلَتِ المطبَخ ووجدَتِ السَمكاتِ قد فُقِدَتْ مِنهُنّ واحدةٌ، خرجَت لتَبحثَ عنِ الهر السارِق. لكنّ هذا صَعِدَ بِخفّةِ الظِلّ إلى إحدى الشجَراتِ، وجَلس مُتلَفْلِفًا بأَوراقِها.

أخذتْ صاحبَةُ البيتِ تُفَتّشُ عَنهُ فلم تَجِدْهُ. ولم تُلاحِظْ أنه كانَ في أعلى الشجَرة، لأنَّ لونَه الأخضَر جَعلَهُ شبيهًا بكُومةِ ورَقٍ أَخضَر، وأَخفاهُ عن نَظَرِها... فرجَعَتْ غاضِبَةً إلى المطبخِ

ووضَعتِ السمكاتِ في البَرّاد.

ظَلَّ الهرُّ مختبئًا بَينَ أوراق الشجرة حتّى انْقطَعَتِ الحركَةُ في المَطْبَخ، فنزَلَ وواصل المَسير، مُبتَعِدًا عن بَيتٍ يُحسَبُ فيه غريبًا. يَجبُ طَرْدُه... حاوَلَ الرجوعَ إلى الحُرجِ لكنَّه ضَلَّ الطريق...

مَشى مسافةً طويلةً حتى تعِبَ وأحَسَّ بالعطَش. ولمّا لم يجِدْ ماءً يشرَبُهُ، خَطَر له أن يأكُلَ شيئًا مِنَ العُشبِ الذي نبتَ على جوانِبِ الطريق، لعلَّه يُبَرّدُ عَطَشَه. تناولَ بفمِه عُشبةً نَدِيَّةً وقضَمَ أوراقها، فشَعَر بٱنتعاش.

ومرَّت به امْرأتانِ عائِدَتانِ من الفُرنِ، تَحمِلُ كلٌّ منهما على رأسها طبَقًا تفوحُ منه رائحَة الخُبزِ الطازَج.

حينَ لمَحَتا الهِرَّ، قالتْ إحداهما للأُخرى:

– انظري ما أجمَلَ هذا الهِر !

– ليتَني آخُذُه إلى بيتي، قالت الثانية، ولكن من أَين أُطعِمهُ؟ ليسَ لي من الطعام ما يكفيني ويكفي أولادي.

– وأنا مِثلُكِ، قالتِ الأُولى، لكنني إذا حَصلتُ على هذا الهِرّ الجميل، رُبَّما بِعتُهُ إلى بعضِ الأغنياء.

سَمِعَ الهِرُّ قولَ المرأة، فخافَ أَن تخطفَهُ وتَحبِسَهُ في بَيتِها ليعيشَ جائعًا مُعَذّبًا. فٱنطلقَ راكضًا في الحقولِ حتى غاب عن نَظرِ المرأتين. وجَلَسَ يَسْتريح..

نظَر حولَهُ فرأى قريبًا منه خَيمةً كبيرةً، حَولَها رجالٌ ونساءٌ وأولاد، يدخُلونَ الخَيمةَ ويَخرجُون منها.

على مدخَل الخيمة عُلِّقت ستائرُ مُلوّنة، مزخرَفَة، أخذ الهِرُّ يُطيلُ النظرَ إليها، مُعْجَبًا بألوانها. وإذا بِيَد ضخمةٍ تمتدُّ مِنَ الوَراءِ، وتَقبِضُ على عُنقِه.

كانت اليدُ يدَ صاحِب الخيمةِ الكبيرةِ المُلَوَّنة، التي لَمْ تكنْ سوى مَلعَبٍ يتفرَّج فيه الجُمهورُ على أشخاصٍ وحيواناتٍ يقومُونَ بتَمثيليّاتٍ وأَلعاب بَهلَوانِية مُدهِشة. هذا الملعَبُ هو الذي يسمُّونه في لُغَةِ الفَرَنج «سيرْك» يَعرِضون فيه قُرودًا وأفيالًا وأُسودًا ونُمورًا، وحيواناتٍ أُخرى مُدَرَّبةً على الألعابِ والحَركات الغريبة، والرَّقصاتِ العجيبة. كذلك يُشاهَد فيه نساءٌ يركَبْنَ الخيول ويدخُلْنَ دَوائِرَ كبيرةً يتصاعَدُ منها لهيبُ النار. ورجالٌ يَمشون على الحِبال أو يتعلَّقون بالسَّقف، ويصعَدُ الواحد منهم على

كِتْفِ الآخَر ويَقومونَ بقَفزاتٍ خَطِرة. حين أمسكَ صاحبُ المَلْعَبِ الهرَّ بيدَيه، أَخذ هذا يتخبَّط طالبًا الخروج. لكنَّ قبضةَ الرجل كانت قاسيةً، حديديَّة، فلم يقدر الهرُّ على الانفِلات.

وقال صاحبُ الملعبِ لرفيقِه الواقف بجانبه:

– هذا الهرُّ رائعُ المنظر. إذا علّمناه بعضَ الحركات، وعَرَضْناه على الجمهور، سيُدهِشُهم بلَونِه البديع، ورُبَّما أصبَحَ مَلِكَ الملعَبِ ومَعبودَ الجماهير.

* * *

حمَلَ الرجُلُ الهرَّ الأخضَر إلى المكانِ الذي يجري فيه تدريبُ الحيوانات. أَطعَمهُ قِطعةَ لحمٍ فأكلَها وشبِع، وأخذ يَقفِزُ في الغرفة فَرِحًا، نشيطًا. لكنَّ الرجلَ، صاحبَ الملعب، قبضَ عليه بيَدِه الحديديَّة وقال:

– ها ها... أنا لم آتِ بكَ إلى هُنا لِكي تسرَح وتمرَح على هواك. يجب أن نَبدأَ الدروسَ منذ الآن.

ثم أمسَكَ رِجْلَ الهرِّ الأماميّة وقال:

– قِفْ على رِجليكَ الخَلْفِيَّتين!

وجَد الهرُّ صعوبةً في هذا الوُقوف الذي لم يألَفْهُ. لكنَّ المعلِّمَ ربَّتَ ظَهْرَه، وأخذ يُعَلِّمه المَشيَ على رِجلَيه الخلفِيَّين وحدَهُما، كما لو كان طِفلًا صغيرًا. وما زال يسيرُ به ذَهابًا وإيابًا حتى تعِب الهرُّ، وأخذ يَئِنُّ متألِمًا. فقال المعلِّم:

– غدًا نَعودُ إلى التمارين. أما الآن فيجب أن تستريح... اسمَع... أنا اسمي المعلِّم دَحروج وأنت اسمُكَ «كوكو». أنا مُعلِّمك وأنت تلميذي، تُطيع أوامري، أَفهِمت..؟

فهِمَ الهر. لكنه لم يقدِرْ على الجواب إلا بكلمة «نَو».

حينئذٍ تركَهُ المعلِّم وخرجَ، بعد أنْ أقفلَ عليه الباب. وأحسَّ الهرُّ بالحاجة إلى النَّوم، فوجَد كرسيًّا منخفِضًا قفزَ إليه وما لبِثَ حتى استَغْرَقَ في نَومٍ عميق، وهو يُقَرقِرُ عاليًا.

لم يُفِقْ إلا على صوتِ معلِّمِهِ ينادي:

– كوكو... كوكو...

ويَهُزّه بيدِهِ الخشِنة. فينَهَضُ مُتثاقِلًا. ويَضَعُ المعلّم دَحروج أمامه صحنًا فيهِ رؤوس سَمكٍ مَقليّ، فيهجُم كوكو على الصَحن ويأكل ما فيه.

ويجلِسُ المعلِّم بجانبه ليُعطِيَهُ الدروسَ اليَومِيَّة.

– قِف على رِجلَيك الخَلْفِيَّتين... عافاك... امشِ... واحِد، اثنان... واحِد، اثنان. ارفع أوّلًا الرِّجْلَ اليُسرى... واحد، اثنان.

لكن كوكو يَضجَر من التمرينِ المُتعِب، ويعود إلى مِشْيَتِه الأُولى على أقدامِه الأربع. فيدفعُهُ المعلِّم بيده ويُرغِمهُ على مواصلةِ الجُهدِ والممارسَة. يُعَلِّمه حَركاتٍ جديدة وفنونًا جديدة.

لم تَمضِ أيامٌ حتى تعلَّم أن يَمشي مِثلَ الجنديّ، على موسيقى لحنٍ عسكريّ. ثمَّ تعلَّم القفْزَ على الحَبْل. وتعلَّم أن يَمُدَّ يَدَهُ مُصافِحًا، ويرفعَها إلى أعلى جبينه، يُحَيّي بها الجُمهور.

جاءَهُ معلِّمُهُ يومًا بأَربعةِ هرَرَة: أبيض، أسود، رماديّ، وأشقر. أقامَهُ في وَسْطِهم ليكون لهم قائِدًا. وأخذ يُعلِّم الهِرَرَةَ الخمسةَ كيف يَمشون معًا، إلى الأمام، إلى الوراء، على أرجلِهم الخَلْفِيّة، وأَيديهِم على صُدورِهم. يُحَيُّون الجُمهورَ معًا، يموؤون بصوتٍ واحدٍ، ويرقصون مثلَ القُرودِ الصِغار.

وحين تَمَّ تدريبُهم، جاء اليومُ الذي يُقدِّمُهم فيه المعلِّمُ دحروج للجُمهور في المَلْعَب.

وقَفَ المعلِّم وقال:

– أُقدِّمُ لكُم المشهَد الأوّل: كُوكو الشَّجرةُ الماشِية.

رُفِعَ السِتارُ وظهَر الهرُّ يمشي على رجلَيه الخلفيَّتين، ويَحمل بيدِه اليمنى غُصنًا أخضر تلْمَع فيه حبوبُ كَرزٍ أحمر. كان الغُصنُ يُظَلِّل الهرّ مِثلَ الشَمْسيَّة، وكان هذا يمشي على خَشَبَةِ المسرح مِثْلَ شجَرةٍ صغيرةٍ مُتنَقِّلة.

دوّى المكان بالتصفيق الحادّ، وهتفَ الحضورُ للهِرِّ – الشجرة.

* * *

في اليومِ التالي ظهَرَ الهرُّ كوكو مع رُفَقائه الأربعة، فمشَوا أمامَ الجمهور مِشيَةَ الجنود وكوكو قائدهُم. ثم رَقَصوا كالقُرودِ الصغيرة وغَنّوا غِناءً كلُّه مُواءٌ وصِياح. فضَحِكَ الحضورُ كثيرًا وعلا هُتافُهم للهِرَرَةِ الصِغار.

من ذلكَ الحينِ، أصبح الهرُّ الأخضرُ يعيشُ كالسجينِ الذي لا يُسمَح له بالخروج من سِجْنه. يَنتقِلُ مِنَ الغُرفةِ إلى المَلْعَبِ ومن الملعبِ إلى الغرفة.

المعلّم دَحروج يُطعمهُ اللحمَ والسمَك، ويُدرِبّهُ كلَّ يوم على الحركَات التي تَعلّمها. يُدَرِّبُهُ حينًا وَحْدَهُ وحينًا معَ الهِررَةِ الأربعة.

هل برعَ كوكو في التمثيل؟ هل صارَ مَلِكَ الملعَب؟ كان يفرَح كلَّما صفَّقوا له وهَتفوا. يَرقُص طَربًا حين يَنجَح في أَلعابِه ويؤَدِّيها مِن غيرِ خطَأ.

لكنّه كان حزينًا لأنَّهُ سجين. يفكّر في الغابات الخضراء التي فيها وُلِد ونَشأ. ويَتمنّى الخروج ولو مرةً واحدة ليسرَحَ في الحقول.

حدَث يومًا أنَّه أثناءَ الحفلة التي أُقيمَت مساءَ السبت أمام جُمهورٍ كبير، اشتعلتِ النارُ في الدائرةِ الكبيرة التي دخَلها الفارسُ مع حِصانِه، وامتدَّت بسُرعةٍ منَ الدائرةِ إلى سَقْفِ الخَيمة، وهدّدتْ جميعَ الخَيمةِ بالحريق.

ذُعِرَ الناس وتدافعوا للخروج من الخَيمة. وهرَع صاحبُ الملعب إلى التِلفون، فدعا رجالَ الإطفائِيّة ليأتوا ويُطفِئوا الحريق.

وفيما كان الجميعُ في هَرْجٍ ومَرْجٍ، وصياحٍ وهياج، انتهزَ

كوكو الفُرصة فانطلقَ هاربًا، وأخذ يركضُ متَّجِهًا نحوَ الحقول. وفيما هو يركُض مُسرِعًا، أَحسَّ بِخُطى تَجري وراءَه، وخُيِّل لَهُ أن معلّمه دَحروج يُلاحِقُه لِلقَبْضِ عليه.

تطلَّع كوكو يمينًا ويسارًا، يبحثُ عن مكانٍ يَختبئُ فيه. وجَدَ في جانبٍ منَ الحَقْل الذي امْتَدَّ أمامَهُ بيتًا كبيرًا من حجَر، قد أُسنِدَ إلى جدارِه الأماميِّ سُلَّمٌ خشبيٌّ طويلٌ يَصِلُ إلى السطح.

بِخِفَّةِ العُصفورِ، تَسلَّق كوكو وبلغَ السطح، فجلَسَ فوقه يَستَريح. وتنفَّس مِلءَ رئَتَيهِ مُعتَقِدًا أنه نجا من معلّمه القاسي ومن سِجنِهِ المُظلِم.

أخذَ يتمرَّغُ ويتدحرَجُ فوقَ السطح مِثلَ طِفلٍ صغير. ينظُر فَرِحًا إلى السماءِ الزرقاءِ المُمتَدَّةِ فوقَهُ مِثلَ خَيمةٍ عظيمةٍ جدًا، لا حدودَ لها ولا ستائر.

دارَ من جانبٍ إلى آخر ونظرَ من مكانِهِ العالي، فَلاحَتْ له الحقولُ والغابات. ورأى هناك بجانبِها بيوتًا جميلة فقال: لعلَّ في تِلكَ البُيوتِ الجميلةِ أُناسًا طَيِّبينَ، لا يُعذِّبون الهِرَرَة، ولا يُرغِمونَهُمْ على الرقْصِ والتمثيل أمام الجُمهور.

ثمَّ رأى الشمسَ في الفَضاءِ وهي تَنحدِرُ نحوَ المَغيب فقال: يَجب أن أَنزِل عن هذا السطحِ وإلّا مُتُّ جُوعًا.

تطلَّعَ حولَه. دارَ من جانبٍ إلى آخر باحثًا عنِ السُّلَّم فلم يَجِدْهُ.. آه. ماذا حدَثَ؟ يَظهرُ أنَّ أصحابَ البيتِ نَزَعوا السُّلَّم من مكانِه، غيرَ عارِفينَ أنَّ على السَطحِ هِرًّا يُريد النزُول!

أخَذ كُوكو يَموءُ عاليًا. يَركُضُ من جانبٍ إلى آخر. يُجَدِّدُ مُواءَه وصِياحَهُ فلم يأتِ أَحدٌ لنَجْدتِه.

أَتُراهُ هَرَب مِنَ المَلْعَبِ، ليَموت وَحْدَهُ على هذا السطحِ المُوحِش؟

لا. لا يُريد أَن يَموت. ولكن كيف يستطيعُ النزولَ من مكانِه العالي؟

ليسَ له إلّا أَن يقومَ بمخاطَرةٍ بُطوليّة. يرمي بنفسِه مِن على السَّطحِ إلى الأرض، لعلَّه يَصِلُ إليها سالمًا.

وإذا كُسِرَت رِجلُه أو تحطَّم رأسُه، إذ ذاكَ يستَقبِلُ الموتَ بِشَجاعة. فالموتُ على الأَرض أَهوَنُ مِنَ الموتِ على السطح !

جَمَعَ كُوكو كلَّ قوَّتِه وشَجاعتِه، وقَفَزَ في الفَضاءِ قَفْزَةً

هائِلة... ولكن... بدلًا من أن يَصِلَ إلى الأرض مُحطَّمًا، تَلَقّاه ولدٌ صغير بِيَدَيهِ وحَمَلَهُ إلى بيتِ هاني!

هذا الولدُ الصغيرُ هو رفيقُ هاني وصديقُه القديم سامي. أرسلَتْهُ الجِنّيّةُ الخضراءُ - كما يَظهَر - ليُساعِدَ الهرَّ على الهبوطِ إلى الأرض مِن غَيرِ أن تتكسَّر أَضلاعُه أو يَصيرَ كَسيحًا.

وحين صارَ الهرُّ الأخضرُ في بيتِ هاني، أطعَمَهُ هذا وسَقاه، ولعِبَ وإيّاه مدةً من الزمن. ثم أطلقهُ يَسْرَح في الأحراج، يقفِزُ من صَخر إلى صخر، يُلاعِبُ الأعشابَ والحشَرات، ويعودُ إلى بيتِ هاني حين يَشاء.

لكن هاني لا يدري أَيَّ اسمٍ يُعطيه. «كوكو»؟ «الهر الأخضر» أم اسمًا آخر؟

حين قرأَتْ والدَة هاني قصة «الهر الأخضر» قالت له: «هذي بداية حسنة. أرجو أن توفَّق فيما بعد إلى وضع حكايات فيها مقدارٌ أكبر من الجَهْد ومن التخيُّل».

◆◆◆

أسئلة

الهر الأخضر

١ كيف استحقّ الهر مكافأة الجنية له بمنحه صوفَه الأخضر الجميل؟

٢ لماذا ترك الغابة؟ كيف عُوقب على غروره؟ كيف أنقذه صوفه من انتقام الطباخة؟

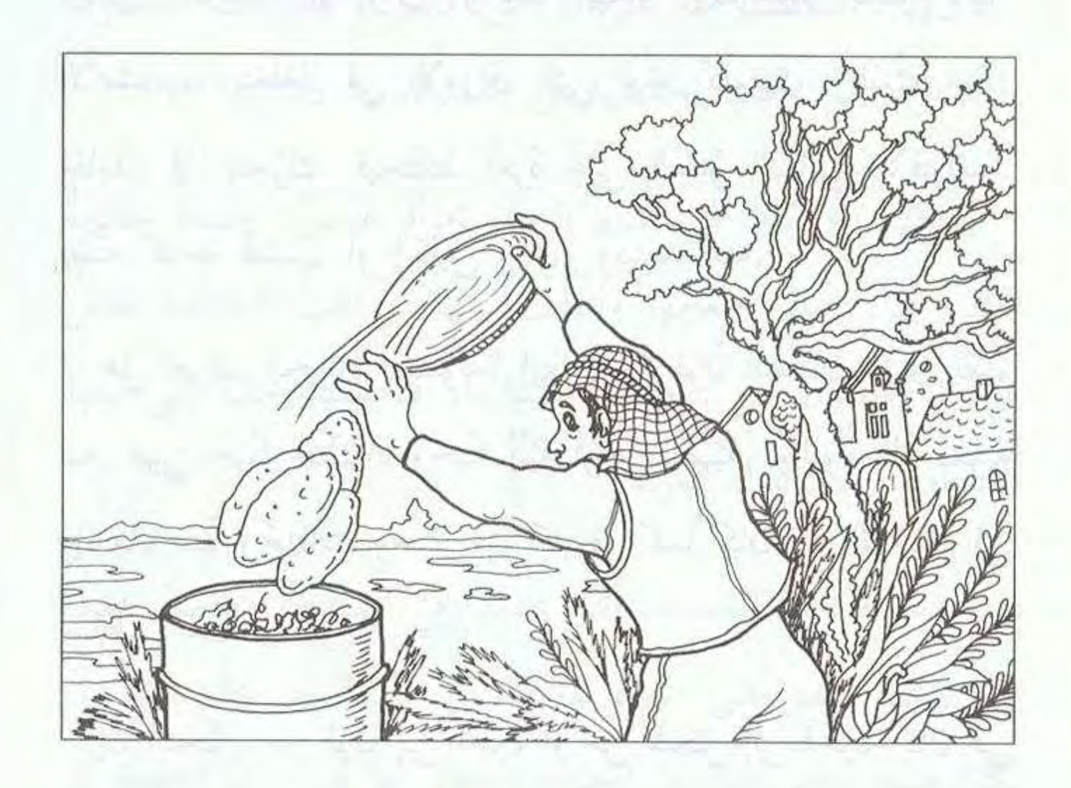
٣ لماذا كان تعيسًا في خيمة الألاعيب البهلوانية (السيرك) مع أنه كان يأكل أطعمة طيّبة ويقوم بألعاب مثيرة؟

٤ ماذا حدث له على السطح؟

لماذا عطفت عليه الجنية وأنقذته؟

هل تاب عن طيشه بعد الذي أصابه من عذاب؟

٥ حاول (أو حاولي) كتابة حكاية مخترَعَة نظير الحكاية التي اخترعها هاني.



لو أَنك رأيت اليوم، في أحد الأحراج، هرًّا أَخضَر الصُوف كالذي تخيَّلَهُ هاني، لقُلت إن الطبيعة، أو جِنّيَّةً تُدعى مَلِكةَ الأحراج، أَعطته هذا اللون ليكونَ له آلة دِفاع في وقتِ الخطر.

كيف يكون اللونُ آلة دِفاع؟

نحن نعلَم أَنّ الحيوان يستخدم للدفاع عن نفسه أسنانَه أو أظافرَه أو مخالبَه أو قرونَه. لكن اللّون أيضًا يستطيع أن يكون آلة

دفاع. لأنّ الهر الأخضر الذي يعيش في الغابة أو في الحُرج، إذا أحسَّ بالخطَر أو رأى وحشًا يُهدِّد بٱفتراسِه، يتكوَّم بين الأعشاب، يتغلغل في الأوراق التي لونه كلَونِها، ويلبَثُ هناك جامدًا لا يتحرَّك. فيختلِط أَمرهُ على العدوّ الساعي لافتراسه. يظنُّه كومةَ عُشبٍ أو إكليلَ وَرَقٍ، ويبتعدُ عنه.

هل تعرِف الحِرباءَ المتلوّنة؟ إنها تتّخذ لونَ المكانِ الذي تُقيمُ فيه. فهِيَ حينًا خَضْراء وحينًا بُنّيّة أو رَصاصيّة. واللونُ آلةُ تَمويه وإخفاء عندَ زحّافاتٍ وحشراتٍ كثيرة، كما كان قِبْعُ الإخفاء في أساطير ألف ليلة وليلة.

إنّ التحوُّل من لونٍ إلى آخر، أو من شَكل إلى آخَر، كان في نظر الأقدمين دليلَ مكافأة على عمَل صالِح، كما في حكاية الهرِ الأخضر. أو دليلَ عِقابٍ على عمَل شرِّير، كما في حكايات أخرى. فلنَسمَعْ بعضَها.

يُقال إن جُدودَنا الأقدمين كانوا يعتبرون القَمحَ حَبًّا مبارَكًا، والخُبزَ طعامًا مقدَّسًا، لأَهميَّته في حياةِ الإنسان. والمِصريون يُسمُّونَ الخبزَ عَيشًا لأَنه أوَّلُ مصادِر العَيش وأَحَبُّها إليهم.

والناسُ لا يزالون حتى اليوم يحترمون الخُبز، فلا يرمونه في الطُرُق. إذا سقطَتْ منه على الأرض كِسَرٌ أو فضَلاتٌ، جمعوها ووضعوها في مكانٍ يَحفَظُها منَ القذارة.

يُحكى أنه كان في قديم الزمانِ امرأةٌ عجوزٌ، عندها خادمةٌ تعتني بها. تصنَع طعامَها وتُنظِّف بيتَها. وكانتِ الخادمة تغافِلُ سيِّدتَها وتَسرِق من أَطعِمَتِها وأَشيائِها. فتحمِلُها خِفيةً إلى بيتِها المجاوِر لبيت تلك المرأة.

حدَث مرةً أنَّ الخادمة، أثناء عملِها في المطبخ، وضعَتْ عددًا من أرغفةِ الخُبزِ على طَبقٍ، لتحمِلَه إلى بيتِها بِغَير عِلم سيّدتها. لكنّ هذه، وقد رابَها أمرُ الخادمة، خطَر لها في تلك الدقيقة أن تستطلِعَ خَبَرَها. ولما أحسَّتِ الخادمة بقُدوم السيّدة، أسرعَتْ فألَقتِ الأرغِفة جميعًا في صُندوقِ الأقذار لتُخفيها عن عُيونِ صاحبةِ المنزِل. وحين دخلَتْ هذِه المطبخَ، رأتِ الطَبقَ الفارِغ من الخُبز يتحرَّك، ويُطبِق على ظَهرِ الفتاة، وتتحوَّل هذه إلى سُلَحفاةٍ تدِبُّ على الأرض، حاملةً على ظَهرِها الطبقَ الذي رفعَت عنه أَرغفةَ الخُبزِ، وألقَتْها في صندوق الأَقذار.

لقدِ احتَقَرتِ الخبزَ المقدَّس حين رمَتْهُ بينَ الأوساخ. فكان عقابُها أن تحملَ على ظَهرِها الطبقَ الفارِغ. وهكذا وُجِدَتِ السُلحفاة التي نعرفُها...

هنا أسطورةٌ أخرى.

تقولُ أساطير اليُونان إنه كان في العصورِ التي مضَتْ فتاةٌ اسمُها صَدى، اشتهرَتْ بفضُولها وحُبِّها للثرْثَرة، وعَجْزِها عن ضبطِ لسانها. فكلَّما لقِيَتْ شخصًا بادرَته بالكلام، وأزعجَتْهُ بالأسئلة، وأرغمتهُ على الإصغاء لحديثِها الذي لا ينتهي.

حينَئذٍ شكا بعضُ الناس أَمر الفتاةِ إلى هيرا زوجةِ زَفْس، عظيمِ الآلهة، فَعزمَتْ على إنقاذ الناسِ من مُضايَقتِها لَهُم. وفي الحال دعَتْها إليها وقالت: من الآن وصاعدًا لن يُمكِنَك طَرحُ الأسئلة ولا بَدءُ الحديث. بل تكتَفينَ بتكرارِ ما تسمعين. وفي غيرِ هذه الحال تَلزمينَ السُكوت.

بكتْ صَدى وتوجّعَتْ لِما أصابَها. ولجأَتْ إلى الأَحراج تسير فيها تائهة، مُتنَقِّلة، تَطلُبُ العَزاءَ عن مُصابها.

في أحدِ الأيام، إذ كانت تسير وحدَها حائرة، رأت في الحُرج

فتًى راعيًا، جميلَ الصُورة يجلِس على حافّةِ نَهْر.

كان الفتى أبيضَ اللون، أشقرَ الشعر، واسعَ العَيْنَين، يُشبه أبُولو إلٰه الشباب. فأحبَّته صَدى ووقفت تَنظُر إليه. لكن الفتى كان مشغولًا بالنَظرِ إلى صورتِهِ في النَّهْر، وقام له النهرُ مقامَ المِرآة، لأنه عاش في العصر الذي سَبَق اختراع المرايا.

اقتربَتْ منه صَدى، وأرادت أن تكلِّمَهُ فلم تَقدِرْ على الكلام. ونظَر إليها الفتى وخاطبها قائلًا:

– مَن أنتِ؟

فأجابت بانكسار: من أنتِ؟

– ما اسمُكِ؟

– ما اسمُكِ؟

– أَتُريدين أن تعرِفي اسْمي؟ اسمي نَرجِس.

– اسمي نَرجِس.

– ماذا تُريدين؟

– ماذا تُريدين؟

تحيَّر الفتى نرجس في أَمْرِ الفتاة وتعجَّب، لأنها لا تقول إلّا ما

تسمَعُه. ولمَّا لم يرَ فائدة من مُخاطَبتِها، عاد يَنظُر إلى وجهِه في النَّهر.

لكن صدى اقتربَتْ منه وقبَّلَتْ جبينَه. فتضايقَ نَرجِس من جُرأَتها، وانتقَلَ إلى الجانِب الآخَر من النهر. وأخذ يُرَدِّدُ مخاطِبًا نَفْسَه: لا أرى أحدًا مِثلي في الجَمال، لا بينَ النساء ولا بين الرِجال. إني أَحتقِرُهم جميعًا ولا أُحِب إلّا ذاتي !

كانت صَدى في الجانِب الآخَر من النَهر، تَنظُر إليه حزينة. وفَجأَةً رَأَتْهُ يُحاوِلُ الوصول إلى خيَالِهِ في الماء ليُعانِقَه. فخافَتْ علَيه مِنَ السُقوط وأرادَت تحذيرَه، لكنَّها لم تستَطِعِ الكلام. وأخذ الفتى يَتَطاوَل ويَنحَدِر نحو ماءِ النَهر، حتى انزلقَتْ رِجلاه في الوَحْل وغَرِق في القاع، وغاب عن الأنظار.

لكن على ضِفاف الجَدْوَل، نبتَت زَهَراتٌ بَيضاء لها قُلوب ذهبيَّة، تُجَدِّد صورةَ الفتى نَرجِس الذي كان أبيضَ اللونَ، ذهَبِيَّ الشَعر. وكان قلبُه قاسيًا كالذهَب، لا يَلين، ولا يَهفو إلى أحد. ولا يُحِبُّ إلّا ذاتَه.

كان المارُّون في الأَحراج يُبصِرون الزَهراتِ البيضاءَ الطويلةَ

الأعناق، المُتمايِلة على ضِفاف المياه. فيقطُفونَها لِيُزَيّنوا بها منازِلَهم. وربَّما سمِعَها بعضُهم تُرسِل كَلماتٍ تَطيرُ في الهواء وهي تقول :

أنا نَرجِس، أنا نَرجِس لا أُحِبُّ أحدًا إلّا نفسي
لهٰذا كان عِقابي
أن أتحوَّل إلى زَهرة.

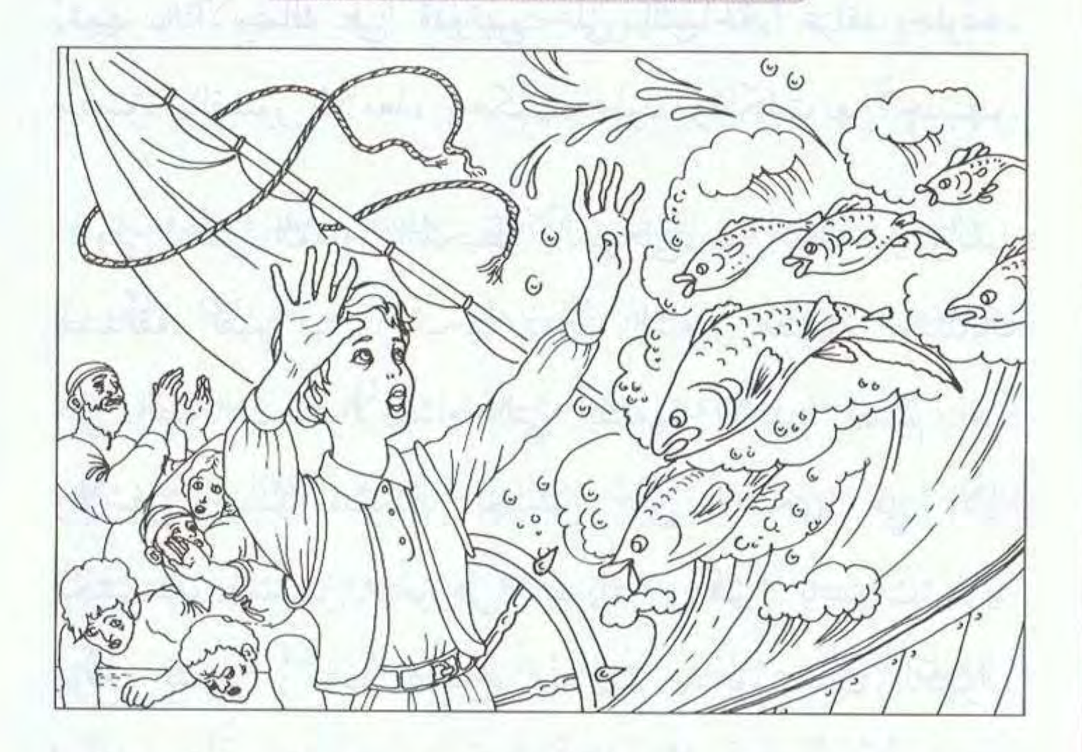
وكانت الفتاةُ صدى تردّد هذه الأقوال، وتوَدُّ أن تقول، هي بدورها:

أنا صدى. أنا صدى.
أنا الكثيرة الكلام.
لهٰذا كان عِقابي
أنْ أُردّد كلام غيري...

لكن صدى لا تستطيع أن تقول ما تُريد قَولَه ! كلُّ ما تَفعَلُهُ أَنْ تُرَدِّدَ الكلام الذي تَسْمَعُه.

◆◆◆

أساطير عن البحر



البحر مِرآةُ الوجود. تَنعكِسُ فيه زُرقةُ السماء صافيةً أو كَدِرة، ووجهُ الطبيعة ضاحكًا أو مُقطّبًا.

أمواجُه ذاتُ الرغوةِ البيضاءِ تُواصِل حركتَها الأبدية، مدًّا وجزرًا. ولتكسُّرِها فوقَ الصخور خشخشةٌ ناعمة كما أَن لِزَحْفِها نحو الشاطئ نَغَمًا يُهدهِد الحواس ويُخَدِّرها.

روعةُ البحرِ وأَسرارُه أَغرتِ الناس بركوبه منذُ القديم، فٱقتحموا لأجلِهِ الأخطار ونسجتْ مُخيّلاتُهم عنهُ الأَساطير والأَخبار.

زَعموا أَنّ في أعماق البحر ممالكَ يسكُنها جماعاتٌ منَ البشَرِ يُشبِهون الأسماك في قُدرتهم على السِباحة. عُراةٌ، جلودُهم مَكسُوَّة بالقشور اللامعة، يحكمُهم ملوكٌ ومَلِكاتٌ مِن جِنسِهم.

وفي بعض المَغاوِر المُحيطة بالشواطئ، بين الصُخور والمياه المتدفِّقة، تُقيم «بناتُ البحر» ذواتُ الشعور الطويلة المتشابكة مثلَ الطحالب، والأجسام التي نِصفُها الأعلى جسمُ امْرأة والأَسفل جسمُ سَمَكة. يَجلِسْنَ على الصخور في الأيام المُشمِسة، يُمشِّطنَ شعورَهن الطويلة، ويتَغَنَّين بأصوات غريبة الوَقْع، تَسحر رُكَّاب السُفُن، وتُغريهم بدخول تلك الكهوفِ المسحورة، حيث يختفون عن الأنظار ولا يدري أحدٌ مصيرَهم بعدَ ذاك.

في الأساطير أنّ أوليس اليوناني الذي ظلَّ تائهًا نحوًا من عَشْرِ سنوات قبل وصولِه إلى بلادِه إيتاكا، مرَّ هو ورفاقُه بالكهوف التي كانت تسكنُها بناتُ البحر. وخوفًا من أن يَخضَعوا لسِحر أغانيهنَّ العذْبة، حَشَوا آذانهم بالشمْع، وعَبَروا ذلك المكانَ الخَطِرَ سالمين.

كثيرةٌ هي الأخبار التي تُروى عن سُفُنٍ أضاعت طريقَها في البحر، وتاهت أيامًا وشهورًا حتى نَفِدَ الزاد الذي كان فيها، ومات رُكَّابها من الجوع والعَطَش.

واحدةٌ من تلك السُفُن، كانت سفينةً صغيرة قَذفَت بها العواصف، كما في أخبار السِنْدباد. فضَلَّت طريقَها وأخذت تجري على غير هُدى. نقطةٌ صغيرة في عُرض البحر الواسع، والبَرُّ عنها بعيد. أخيرًا انتشَر بين رُكَّابها خبرٌ هائل: نفِدَ منهمُ الزاد وانتصَب أمامهم شَبَحُ الجوعِ والموت. ماذا يصنعون؟ ارتفعت أصواتُهم باكيةً مُعْوِلة. «نُريد أن نأكل ! لا نصبِر على الجوع !» والسفينة تائهة في عُرض البحر. والرُكَّاب يتعالى صراخُهم. يعانون آلامَ الجوعِ والفزَع من هلاكٍ قريب.

حين أيقنوا أَنْ لا سبيلَ إلى الخلاص، وقفَ بينَهُم رئيسُ المركب وقال: لم يَبقَ أمامنا إلّا أَنْ نضحّي واحدًا منكم ونأكله، فيكون فِدى الباقين.

دبَّ الذُعرُ في نفوس الركّاب، ومرةً أخرى علا صُراخُهم. لكنَّهم حين لم يجِدوا لمُشكِلتِهم حلًّا آخر، رَضوا بالاقتراح. وقرَّ

رأيُهُم على تضحيةِ مَنْ تُصيبُه القُرْعة.

وقعتِ القُرعة على أَصغرِهم سِنًّا. ففَرِحَ الباقون لنجاتهم، لكنهم اختلفوا على كيفيةِ قَتْلِه وتهْيِئَتِهِ طعامًا. أَيُعدِمونه بالرصاص؟ أم يَشنقونه بحَبل؟ أَيَشْوونَه فوقَ النار أم يَسلقونَه في الماء؟

وفيما كانوا يتناقشون، صعِدَ الولد إلى سَطْح السفينة وجثا على رُكبتَيه مُصَلّيًا، طالبًا رحمةَ اللّه. وإذا بعاصفةٍ هبَّت في البحر، فٱرتفعت أمواجُه وقَذَفت المياه إلى قلب السفينة، حاملةً معها أكوامًا من الأسماك الكبيرة والصغيرة التي أخذَت تتواثبُ وتتدافعُ، متراكمةً داخلَ المركب. والركّاب يَهجمون عليها كأنَّها المَنُّ الهابِط إليهم من السماء. وفي خلالِ دقائقَ قليلة، هَيَّأوا مائدةً عامرة من الأَسماك المَشويَّةِ التي ملأَتِ السفينةَ بروائِحها الطيِّبة. فٱلتهَمَها الرُكّاب ٱلتهامًا، وهُمْ غيرُ مُصدِّقين أَنَّ مُعجِزةً أنقَذتْهم وأنقذَتِ الغلامَ الذي أرادوا تَضحيتَه.

هناك حكايةٌ أُخرى عن فتى أَنقذته الأسماك من الموتِ الذي أعدَّه له رفاقُه المسافرون. هي حكاية شابٍ يونانيّ يُدعى آريون.

في العصور القديمة، قبل ميلاد المسيح بنحوِ ألف سنة، ازدهرَتْ في اليونان فنونُ الرقص والموسيقى والغِناء. لقِيَت هذه الفنون تشجيعًا منَ الملوكِ والكَهَنة لحاجتِهم إليها في الأَعياد الدينيَّة، والحَفلاتِ التي أُقيمت لتكريم الآلهة والإلهات، وتنصيبِ الملوك، ودفنِ العُظماء.

في ذلك الحين انقسمَتْ بلادُ اليونان إلى دُوَيلاتٍ، أي دُوَلٍ صغيرة مستقِلَّة، كلٌّ منها خاضعةٌ لِمَلِك أو زعيم.

في إحدى تلك الدُوَيلات التي كان مركزُها مدينة كورنتوس، عاش مِلكٌ يُدعى بيرِيانْدَر، شديدُ الولع بالموسيقى والغناء. لذلك أصبح بَلاطهُ مركزًا يقصده الموسيقيُّون والمغنُّون ليُطرِبوا المَلِك وأهلَ قصرِه بِحفَلاتِهم، وينالوا منه الجوائزَ والهِبات.

سمِعَ الملِك يومًا بوجود موسيقيّ يُدعى آريون، زعَموا أنه من نسل الآلهة التي منَحَته موهِبةَ الموسيقى؛ فبرعَ في العَزفِ على القيثارة، واخترع ألحانًا جديدةً وأناشيد، مدَح بها دِيونيسيوس إلٰهَ الخمر.

ولِلحال أرسلَ الملِك مَنْ يأتي به إلى قَصْره. ولشِدّة إعجابه

بِغنائِه وعَزْفِه، جعلَهُ مُشرِفًا على الحَفَلات الموسيقية التي كان يُقيمُها في البَلاط.

جاءَهُ يومًا آريون وقال:

- أيها الملك.. إسمحْ لي بالسَفر إلى صِقِلّية (جزيرة في جنوبي إيطاليا)، للاشْتراكِ في مُسابقَة موسيقيَة.

ظهَرتْ علاماتُ القَلَق على وَجْهِ المَلِك وقال:

- أَخاف أن يُصيبَك سوء. ابقَ هنا وأنا أُعطيك كُلَّ ما تُريده من مالٍ عِوَضَ الجوائز التي تَرغَب في نَيلها.

- لكني أريد الفوز. أُريد فَرْحَةَ الانتِصار. وأعِدُك بالرجوع من غيرِ إبطاء !

فأحنى الملك رأسَه بحُزنٍ وقال: اذهب، حرسَتْك الآلهة.

سافَر آريون في اليوم التالي. حملَتْه إلى صِقِلّية سفينة ذاتُ أشرعةٍ بيضاء. ودَخَل قاعةَ المسابقة حيث اجتمع كِبارُ الموسيقيّين من جميع أَنحاءِ اليونان وصِقِلّية. عزفوا ألحانَهم وأنشدوا أَغانِيَهم. فطرِبَ الحضور وصفَّقوا. لكنْ حين أخذ آريون في العَزْف أَنصتوا إليه مأخوذين بألحانه التي فعلَتْ فيهم فِعلَ

السِحر. أَثارت فيهم الحُزْنَ والفرَح، الحَماسَة والنَخْوَة، الشَوقَ والحنين. تلاعبت بقلوبهم وأَسرَتْها. نقلَتْهم إلى عالمٍ لم تَعرِفْهُ أحلامُهم.

إنتَهتِ المُباراة. خرجَ آريون من القاعةِ مُتَهلِّلا، رأسُه معصوبٌ بأكاليل الغار. يداه تحملان أكياسًا من الذهب نالها جزاءَ فَوزه.

رَكَضَ إلى السفينةِ الناشرةِ قلوعَها للسفر. وهو يكاد يطيرُ شوقًا إلى البَلاطِ الذي أحَبَّه وإلى الملِك الذي كان ينتظِرُهُ بفارِغِ الصبر.

لكن، ما إنْ بَلغَتِ السفينة عُرْضَ البحر، حتى فاجأَه رئيسُها بقوله:

- استعِدَّ للموت يا آريون. فقد صَحَّ عزمُنا على قَتلك.

أخذ آريون يرتجِف خوفًا. فَهُوَ في المركب وحيدٌ، لا صديقَ له يُدافع عنه أو يَسعى لإنقاذه. وتذكَّر حامِيَهُ الملِك الذي حاوَل منعَه عن السفر خوفًا من أن يُصيبَه مكروه. لكنه تشجَّع وقال:

- لماذا تُريدون قَتْلي؟ ماذا فعلْت؟

- نريد قتلك للحصول على الأموال التي تَحمِلُها.

– خذوا الأموال واتركوني حيًّا !

– لا. لا ! نخشى أن تشكونا إلى الملِك فيقتُلَنا.

حين لم يجد آريون بابًا للخلاص، استأذن بالصعود إلى سطح المركب، لابسًا أفخر ملابسه، ليغنّي أغنيتَه الأخيرة. صَعِد إلى السطح، وأطلقَ صَوتَهُ بأُغنيةٍ حزينة، حرَّكت قلوبَ الأسماكِ والصُخور، ولم تُحرِّك قلوبَ البَحَّارةِ القُساة... ثم رمى بنفسِهِ في الماء.

وإنَّ حَشْدًا من الدَلافين – وَهي حيتانٌ مَشهورة بحُبّها للموسيقى – تقاطَر أفرادُها حَولَ السفينة، مُنصِتين إلى صَوت آريون، وقد أسكرَتْهُم عذوبَتُه. ولمّا رأَوه يَتخَبَّط في الماء مُشرِفًا على الغرَق، حَمَلَهُ أَحدُهم على ظَهره، وسَبَح به إلى كورنتوس حيث دخلا معًا بَلاطَ الملِك، قبلَ وصُول السفينةِ إلى البَر.

لمَّا روى آريون لِلملِك حِكايةَ الدُلفين الذي أنقذَه، صفق بيَدَيهِ طرَبًا، وأمرَ بأنْ يُفرَدَ للدُلفين مكانٌ في القَصر، بجانبِه بِركَةٌ يَسبَح فيها ويَخرُج منها حين يشاء. وأَوصى بأَن تُقَدَّم لَهُ أَفخَرُ الأطعِمة ويُعامَل أفضَل معاملة. ولأَنَّ الدُلفين أحبَّ الغِناء، سُمِح له

بِحضور جميع الحفَلاتِ الموسيقيَّة وَهو جالِس في جُرن ماء. لكنّ حياةَ التَرَف والرخاوة أَضرَّت به، فلم يَمضِ زمن حتّى مات من التُخمة.

أمّا أصحابُ المركب الذين أرادوا قتْل آريون، فقد اسْتقدَمَهُمُ الملِك وأَنزَل بِهم العِقاب الذي اسْتَحقُّوه.



أسئلة

أساطير عن البحر

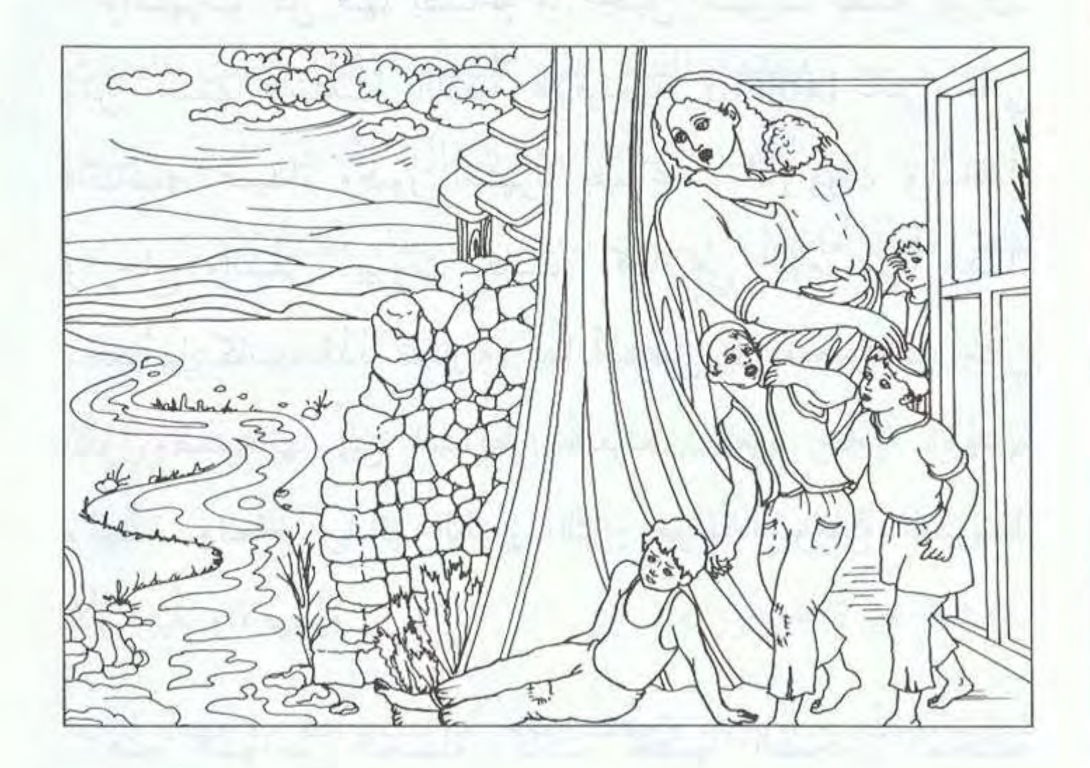
١ أي دروس نتعلَّمها من حكاية «صدى ونرجس»؟

٢ ما هي «بنات البحر»؟

نساء أسطوريات، لا وجود لهنّ في الواقع، ذوات شعور طويلة وأصوات ساحرة جميلة، يُغرينَ البحّارة بالمغامرة والقيام بالأسفار البعيدة الخَطِرة. يَرمُزْنَ إلى سِحْر البحر وقدرته على اجتذاب الملّاحين والرحّالين وأصحاب المغامرات الذين لا يخشَون ركوبه، رغم المخاطر التي يتعرّضون لها. كان سِحْرُ البحر هو الذي دفع السندباد إلى القيام بسبع رِحلات بحريّة، جابَه فيها أنواعًا عديدة من الأخطار والشدائد ومع هذا عاد سالمًا. هل قرأت بعض رحلات السندباد؟ اروِ ما قرأت.

٣ ما هو الدلفين؟ بماذا يمتاز هذا الحيوان؟ هل رأيت صورته في التلفزيون؟ في كتاب؟ صِفْه.

أوروبّا وقدموس



كانتْ شواطِئُنا منذُ آلافِ السنين، كما هِيَ اليوم، عامرةً بالمُدُن: صَيدونُ التي تُدعى اليوم صَيداء، وجارتُها صُورُ التي لم يَتغيَّرِ اسْمُها. جُبَيل التي سمّاها اليونان بيبلوس، وقريبًا منها بَيروت وكانت تُدعى قديمًا بِيرِيت.

هذه المُدُن كانت فيما مضى مراكزَ صناعيةً وتجاريَّةً عظيمةَ الأَهميّة. كلٌّ منها أَلَّفت دولةً أو مملكة، على رأسِها ملِكٌ

يَحكُمها، فسُمِّيَتْ: المدينةُ - الدَولة أو المدينة - المملكة.

واشتهَرتْ كلٌّ منها بصناعةٍ ما. جُبَيل اشتهرتْ بصُنع الوَرق، ومِن اسمِها اشتقَّتِ اللفظةُ الإفرنجيّة biblion التي تعني «كتاب». صيداء وصور اشتهرَتا بصناعات الأُرجوان والمعادن والزُجاج والسُفُن. بيروت كانت، كما هي اليوم، مَرفأً مُهِمًّا. وجميعُها كانت مُدُنًا تجارية، بها أساطيل أي مجموعاتُ سُفُنٍ تَنقُل مصنوعاتِها إلى الشواطئ البعيدة، وتعود حاملةً الذَهبَ والفِضَّة والعاج وسائرَ الكنوز التي حوَتْها شواطئُ المتوسّط الأوروبيّةُ والأفريقيَّة.

هذه السواحلُ الجميلة كانت تُغطّيها الصخورُ المختلفةُ الأشكالِ والحُجوم، التي تُؤَلِّف مغاوِر أو مخابئَ أو استراحاتٍ ظليلة، تقصِدُها بنات الملوك وسواهنَّ منَ النبيلاتِ للنُزهَةِ والاستِحْمام. فيَجلِسنَ على الصخور المُنبسِطةِ كالمقاعد الملْساء، يتأمَّلنَ الأَمواجَ الزاحفة، والسُفُنَ التي تَشُقُّ البحرَ سادلةً أشرعتَها البيضاء. يسْرَحْنَ حافيات الأقدام على الرمال النَديّة، يَغتسِلن في المياهِ المجتمعةِ في فجَواتِ الصخور، حيثُ

تكثُر الأَجران أو البِرَكُ الصغيرة الصالحة للسِباحة والاغتسال.

حدث مرةً أَنَّ أميرةً من أميرات صيدون اسمها أُوروبّا، خرجَت مع رفيقاتِها للتنزُّه على الشَطّ. وفيما كانتِ الفتياتُ منصرفاتٍ إلى اللعبِ والمَرَحِ فوقَ الرمال، إذا بثَورٍ أبيضَ جميل يَظهرُ فجأةً أمامَهُنَّ، ويسعى نحوَهُنَّ باسمًا، مُستأنِسًا.

ذُعِرَتِ الفتَيات في بادئِ الأمرِ مِن هذا القادمِ الذي اقتحمَ عُزْلَتَهُن. ولكنْ سُرعانَ ما تبدَّد خوفُهن حين وجدنَهُ ثورًا لا كالثيران، شديدَ اللُطفِ والإيناس، راغبًا في اللعِب واللَهو، مُدهِشًا بحركاتِهِ ونَزَواته.

إستأنسَتْ به أُوروبا، ومدَّت يدَها تُداعِبُ رأسه ووجهَه. فأخذ يَلحس يدَها مُلاطِفًا وَيَمُدُّ قدَمَهُ برِفْقٍ نحوَها. والفتياتُ حولَها مُتَضاحِكاتٌ حينًا، أو مُقبلاتٌ على الثَورِ يمسَحنَ على ظَهرِه بأيديهِن ويدفَعنه للركضِ معهنَّ فوقَ الرمال.

تجرَّأَتْ أُوربا فركِبَت ظَهرَه فَرِحةً مُبتَهِجة. وفجأةً أخذَ يجري راكضًا والفتاةُ على ظَهرِه، حتى دخَلَ البحر سابحًا. وشَقَّ الموجَ كما يشُقُّ السَهمُ الخواء، والفتاةُ تَصرُخُ وتستغيث، فلا تَجِدُ مَن

يُنجدُها. ولم تَمضِ دقائقُ حتى غابَ الثَور في عُرضِ البحر، وغابَتْ معه أُوروبا، والفَتياتُ يَنظُرنَ مَصعوقات، لا يَدرِينَ ما الذي يَجِبُ عَملُه، لأن الذُعرَ أطارَ قلوبَهن وشلَّ تفكيرَهن.

انتشَر في المدينةِ خبرُ اختفاءِ أُوروبّا، وشَمَلَ قصرَ أبيها الهمُّ والأَسى. أخذَ الناسُ يتساءَلون ما هو هذا الثورُ العجيب، وإلى أين ذَهَبَ بأبنة الملِك، وما عسى أن يفعَل الملِك لاستردادِ ابنتِه؟

في هذا الحينِ، كان الملِكُ قد جمعَ رجال دولتِهِ وتباحثَ وإياهم في الأَمر. فاقترحوا إرسال بطَلٍ مغامِر يركبُ البحرَ الذي غاص فيه الثور، ويبحثُ عن أوروبّا في جُزُرِه وشواطئِه، لعل الحظَّ يُسعِفُه بالعثور عليها.

كان لأُوروبّا أخٌ يُدعى قَدمُوس، برَعَ في الصَيدِ والمصارعةِ والفروسيّةِ والمِلاحة. وقَفَ بينَ المجتمِعين حولَ أبيه وقفةَ البطل الجبّار ورفَعَ صوتَه قائلًا:

– لن يقومَ بهذه الرِحلةِ الخَطِرَةِ إلّا أنا. فالواجبُ يَقضي عليَّ بالبحثِ عن أُختي، وإنقاذِها من خاطِفيها ولو كلَّفني ذلك حياتي.

حين رأى الملِك ابنَهُ مُصمِّمًا على الرحيل، أَعلنَ موافقتَه، لأن أحدًا غيره لم يَجرؤْ على المخاطرة. أعطاه مَركبًا مُقدَّمَتهُ كرأسِ حصان وسُرعتُه كسُرعةِ الجوادِ الأصيل، ركِبَهُ قدموس وسار به في عُرضِ البحر، تتقاذَفُه الأمواج وتدفعه الرياح من كل جانِب.

بعد مسيرةٍ طويلةٍ مُتعِبَةٍ، أَرسى قدموسُ مَركبَهُ على شواطِئ بلادِ اليونان التي دُعيتْ قديمًا هِلّاس. هناك أخذَ يدورُ بينَ الجُزُرِ المنتشرةِ حولَها حتى وطِئَ أرضَ البلاد. وظلَّ يَطُوفُ فيها من مكان لآخر ويسأل السكّانَ، لعلَّهم يُرشدونه إلى الأَميرةِ الصَبيَّة التي اختطفَها الثورُ وحمَلَها غَرْبًا.

لم يطلْ به الوقت حتى عَرَفَ أَنّ خاطِفَ أُختِه هو زَفسُ أو جوبيتَر عظيمُ الآلهة، الذي اتَّخذ شكلَ ثَور وقصَد شواطئَ فِينيقيا ليَخْطِفَ أَوروبّا الجميلة. وحالما وصَل بها إلى جبال الأُولَمب، مَقَرَّ الآلهة، خلَعَ عنه هيئةَ الثور، وقادَ الفتاةَ إلى قصرِهِ في أعالي الجبال. وأقام على باب القصر تِنّينًا، أي حيَّة هائلةً تَحرُسُها وتمنع أيَّ إنسانٍ منَ الوصولِ إليها.

أخذَ قدموس يبحثُ عن مَقرِّ أُوروبّا لكي يقتُلَ التِنّين ويُنقِذَها.

وساقَهُ البحثُ والتنقُّلُ إلى القصرِ الشاهقِ الذي أقامت فيه. ورأى عند مدخلِهِ التِنّين الهائل ممدَّدًا، يمنعُ المرور.

كان هذا التِنّين حيةً ضَخْمةً خضراءَ اللون، ذاتَ أجنحةٍ شائكة، وأنيابٍ هائلةِ الحجمِ، ولسانٍ طويل مِشقوقٍ، يُخرِجُهُ من فمِهِ فيَخرجُ مَعَهُ لهيبُ نار.

حين أحسَّ التِنّين بخُطى قدموس تقترِبُ نحوَه، تحرَّك يُريدُ الوُثوب لِيَفتُكَ به. لكن قَدمُوس كانَ أَسرعَ منه تحرُّكًا، فطعنَه بالرُمحِ طعنةً دخلتْ فمَهُ وخرجَتْ من ظهرِه، فزعقَ زعقةً عظيمةً وارتمى على الأَرض يتخبَّط في دَمِه.

على أَنَّ قَتْلَ التنّين لم يُوصِل قدموس إلى أُوروبّا. فأبوابُ القصرِ ظلَّت مُغلَقَةً دُونَه، لأن رَبَّ الآلهةِ ضربَ حولَها نِطاقًا لا يَقدِرُ أحد على اختراقِهِ. وأيقنَ قدموس بعَجزِه عن مقاوَمَةِ ربِّ الآلهة. فقطعَ رأسَ التِنّين، وأخرجَ أنيابه الاثنتَي عشرة. وزَرعَها في أَرض هِلّاس.

ومن كل نابٍ خرَجَ زعيمٌ أخذ يقاتِلُ زعيمًا آخرَ. وأسفَر القِتال عن سقوط المتَقاتِلين، ما عدا خمسةً منهم تلقَّنوا العِلْمَ والحكمةَ

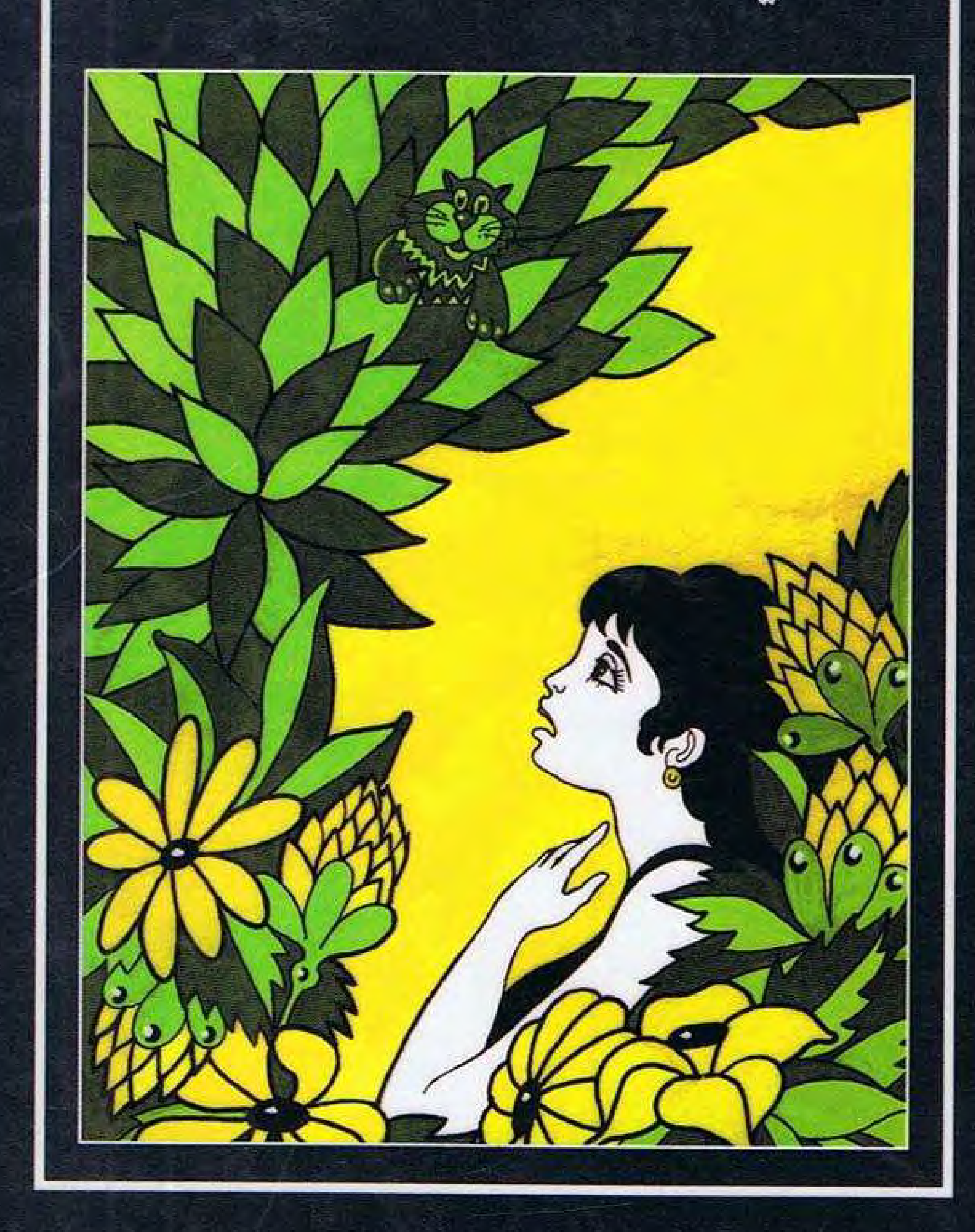
من قدموس ونشروهُما في بلادِهم. قبلَ رجوع قدموس إلى بلادِه، وقفَ على شواطئِ هِلّاسَ مودِّعًا، ومدَّ يَدَهُ مُشيرًا إلى الأَقطار المُمتَدَّةِ من شواطِئِها إلى شواطئ المُحيط الأَطلسي، مُطلِقًا عليها جميعًا اسمَ أُوروبّا. وبدلًا من العَودةِ بأُختِه إلى فينيقيا، عاد حاملًا أكاليلَ المَجْد، لأن مغامرتَه أدّت إلى قَتل التِنّين الذي يمثِّلُ الظُلمةَ والجَهل. وبزَرْع أنيابِه، زَرعَ الحِكمةَ والعِلم. لأنَّ قدمُوس هو الذي نقلَ إلى بلادِ هِلّاس أبجديَّةَ الفينيقيّين ومدنيَّتَهم. وبتَرْكِ أُوروبّا في تلك الأرض، أقامَ بينَها وبين بلادِه روابطَ ثقافيَّةً متينةً، كانَ اسْمُ أُوروبّا رمزًا لها.



الفهرس

روز غـريبّ

في عالم الأسطورة



مكتبة سمير